سطح وأعماق

بين النفس البشرية والذات الإنسانية

بقلم: ميشال السمراني
www.esoteric-lebanon.org

وقفت يوماً أمام ضفة نهر، أرقب سريان مياهه الصافية الشفافة التي أظهرت ما في قعره من أشياء. تناولت حصاة صغيرة وألقيتها في المياه. ما إن لامست سطحها حتى انبعث صوت ارتطامها بهدوء المياه. ثم تابعتُ نزولها ببطء إلى أعماق النهر، وحين ارتطمت بالقعر، أحدثت صوتاً (دافئاً) يختلف عن صوت ملامستها السطح.

تأملتُ في فارق الصوتين، وفيما عساه يكون سببه، لكني لم أتوصل إلى المراد.

وفي المساء، فيما كنت أتأمل في ذاتي، في تلك الأعماق الدفينة، سمعتُ صوتاً ينبثق من مكان ما، ربما من تلك الأعماق. كان صوتي، لكنه كان مختلف النبرة عن ذاك الصوت الصادر من أعماق الذات الهاجعة.

لِمَ هذا الاختلاف؟

وعادت صورة النهر إلى مخيلتي، وإلى صوت الارتطام الذي أحدثته الحصاة الملقاة في مياهه، والى ذلك الاختلاف في ارتطامه حين اصطدم بالسطح، وحين لامس العمق.

وصدحت أصوات أخرى من ذاتي، هي صوتي، لكنها تختلف عنه... فذاتي كانت تصدر الأصوات، وهي تجيب عن التساؤل قائلة:

«ألا تدري أن للسطح صوتاً يختلف عن صوت العمق؟ على السطح ضجيج وأشكال ضياء وظلال... لكن في العمق، كل شيء هادئ، فلا ترى غير النور ولا تستمتع بغير السكون.

الحصاة على سطح المياه تُغيّر من شكل المياه، فهي تارةً حلقات مستديرة، وأخرى متعرجة، مرة هادئة، ومرة متحركة... لكن القعر يبقى ساكناً، يبقى صافياً، لا تتغير ملامحه . لأن القعر يستقبل الحجارة ويدعها ترقد بهناء، لأنه يستوعب كل شيء.

وصوت العمق يختلف عن صوت السطح. لأن في العمق صوت السكون هو السائد، صوت إيقاع المياه فقط. أما على السطح، فهناك أصوات وأصوات، داخلية وخارجية، تختلف مع الزمن، وتتبدّل حسب الأحوال والعوامل الخارجية.

أنت للمرة الأولى تستمع إلى صوت الذات فيك، ولذلك وجدته غريباً. لكنه في الحقيقة، صوتك أنت، وصوت الحقيقة فيك. والنبرة الأخرى التي سمعتها هي صوت نفسك، صوت الواقع فيك.

أنظر إلى قعر النهر، تجد مياهه مشابهة لمياه السطح. تمعّن فيها، تراها أكثر هدوءاً. أما مياه السطح فنسمة عابرة تحرّكها. فهذا هو الفارق بين النفس والذات في كل إنسان.

في أعماق ذاتك تقبع معرفة ساكنة هاجعة هانئة، لا تعرف تغيّراً ولا تبدّلاً، لأنها الأعمق والأصدق. فالمرء حين يقف أمام بحر، ينظر أول ما ينظر إلى سطحه، فتأخذه تلك التجاعيد المتحركة التي تظهر على سطح الأمواج، وتمنعه من رؤية الأعماق.

كذلك الإنسان عامة... اعتاد النظر إلى سطح الأشياء من منظار نفسه البشرية، فيجدها متغيرة متقلبة، لا تثبت على حال..

لكن الأعماق هي الأكثر صفاءً والأشدّ ثباتاً. أنظر إلى أعماقك، واستمع إلى صوتها، تلقاه رخيماً ثابتاً لا يتغيّر، لأنه صوت الحقيقة في الذات الإنسانية. تخطّ السطح، ابتعد عن التشويش وتمعّن في الأعماق حيث تخفى الحقيقة، حيث يستشفها الفكر الثاقب.

كُنْ كالأعماق، هادئاً صافياً، بعيداً عن التشويش، وتخطّ السطح، لأنه يخفي الحقيقة.

كُنْ كالأعماق تستقبل كل ما هو ثقيل وذو أهمية. لأن السطح يلفظ كل ما هو خفيف وتافه.

تعلّم من السطح كيف يستقبل النسمات ويردّ العواصف... ليبقى القعر صافياً بعيداً عن كل ما هو خارجي يعكّر صفو سكونه.

أنصت دوماً إلى الأعماق لتعرف الحقيقة، لتكتشف الفارق بين السطح والعمق، بين النفس والذات، بين الواقع والحقيقة.